نعم الله على بلادنا

د. علي أحمد الصحفي

إنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْنَا كَثِيرَةٌ وخَيْرَاتِه وَفِيرَةٌ، نِعَمٌ لَا تُحْصَى في بلادنا المباركة الْمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ.

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِن تَعُدّوا نِعمَةَ اللَّهِ لا تُحصوها). وَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً).

إِنَّ نِعَمَ اللهِ تُحِيطُ بِالعِبَادِ في هَذِهِ البِلادِ مِن كُلِّ جَانِبٍ، وَالآلاءُ تَحُفُّ بِهِم مِن كُلِّ نَاحِيَةٍ، يَرَونَهَا تَهطُلُ دَفَّاقَةً مِن فَوقِهِم، وَتَنبُعُ ثَرَّةً مِن تَحتِ أَرجُلِهِم، وَتَرِدُ إِلَيهِم مِن يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَتُصَبِّحُهُم وَتُمَسِّيهِم جَوًّا وَبَرًّا وَبَحرًا، وَيَتَقَلَّبُونَ فِيهَا قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم، قَد أَحدَقَ اللهُ لَهُم مِنَ النِّعَمِ مَا لَم يَكُنْ لأَسلافِهِم، وَزَادَ لَهُم في الفَضلِ بِمَا حُرِمَهُ السَّابِقُونَ، وَالتَّارِيخُ وَقَصَصُ الأَجْدادِ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنْ أَجَلِّ تِلْكُم النِّعَمِ، نِعْمَةُ الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ عقيدةُ التوحيد، الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَة، بِلَاد التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ؛ كَمَا صرَّح بِذَلِك موحِّد هَذِه الْجَزِيرَة الْمَلِك عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَذَلِك أَبْنَاؤُه الْبَرَرَة قَادَة هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَة، كُلُّهُم يصرِّح بِوُجُوب الِالْتِزَام بالعَقِيدة الصَّحِيحَة وَلُزُوم مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فيالها مِنْ نِعمةٍ عُظْمَى ومِنَّة كُبْرَى.

بَل نَصَّ نِظَام هَذِهِ الْبِلَادِ الأَسَاسِيّ عَلَى حِمَايَةِ عَقِيدَة الْإِسْلَام وَتَطْبِيق الشَّرِيعَة وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ. وعُلَمَاؤُنَا الْأَجِلَّاءُ بَيَّنُوا مَكَانَة هَذِهِ الْبِلَادِ الْعَظِيمَة ومَنْزِلَتهَا الرَّفِيعَةَ في هذا الجانب.

ومِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا أَنَّ هَذَا الْوَطَنَ هُوَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ، وَقِبْلَةُ الْمُسْلِمِين، وَمَنْبَعُ الرِّسَالَةِ؟! مِنْهُ انْطَلَقَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، وَعَبْرَ بَوَّابَتِهِ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

ومِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا في هذِهِ البِلَادِ الأَمَنَ والأمانَ والرغدَ في العَيْشِ، وهو مَطلَبٌ تَصغُر دُونه كثيرٌ من المطالب، وتهون لأجله كثيرٌ من المتاعب، الأمنُ في الأوطان لا يُشتَرى بالأموال، ولا يُبتاع بالأثمان، ولا تفرضه القوَّة، ولا يُدرِكه الدهاءُ؛ وإنما هو منَّة ومنحَة من الملكِ الديَّان: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: 3 -4).

بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ تَعْمُرُ الْمَسَاجِدُ وَتَصْفُو الْعِبَادَةُ، وَيُنْشَرُ الْخَيْرُ وَتُحْقَنُ الدِّمَاءُ، وَتُصَانُ الْأَعْرَاضُ وَتُحْفَظُ الْأَمْوَالُ، وَتَتَقَدَّمُ الْمُجْتَمَعَاتُ وَتَتَطَوَّرُ الصِّنَاعَاتُ.

الْأَمْنُ فِي الْبِلَادِ مَعَ الْعَافِيَةِ وَالرِّزْقِ هُوَ الْمُلْكُ الْحَقِيقِيُّ، وَالسَّعَادَةُ الْمَنْشُودَةُ؛ قَالَ ﷺ في الحديث الصحيح: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا".

إِذَا خَلَتِ الْبِلَادُ مِنَ الْأَمْنِ، فَلَا تَسَلْ عَنِ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ، إِذَا ضَاعَ الْأَمْنُ حَلَّ الْخَوْفُ وَتَبِعَهُ الْفَقْرُ، وَهُمَا قَرِينَانِ لَا يَنْفَكَّانِ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ: {فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112].

فَالْأَمْنُ وَالِاسْتِقْرَارُ إِذًا مِنْ أَهَمِّ مُقَوِّمَاتِ الْعَيْشِ وَمَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَالْوَاقِعُ وَالتَّارِيخُ يُؤَكِّدُ هَذَا كُلَّهُ، فَالْبِلَادُ الْآمِنَةُ يُرْحَلُ إِلَيْهَا، وَتُزْدَهِرُ مَعِيشَتُهَا، وَتَهْنَأُ النُّفُوسُ بِالْمُكْثِ فِيهَا.

وَلِذَا كَانَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُسْتَلَذِّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْجَنَّةِ نَعِيمُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ: { وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: 37].

وَفِي الْمُقَابِلِ حِينَمَا تَخْلُو الدِّيَارُ مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، تُصْبِحُ أَرْضًا مُوحِشَةً، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْخَيْرَاتِ، بَلْ إِنَّ التَّشْرِيدَ بَيْنَ الْأَنَامِ، وَاللُّجُوءَ إِلَى الْخِيَامِ، لَيُصْبِحُ أَهْنَأَ وَأَهْوَنَ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [العنكبوت: 67].

وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ النَّاسَ مِنْ كُلِّ الْبُلْدَانِ يَدْفَعُونَ الغالي وَالرَّخِيصَ مِنْ أَجَلِ الْهِجْرَةِ أَوِ الْإِقَامَةِ فِي بِلَادِنَا حَفِظَهَا اللهُ وَحَفِظَ وُلَاةَ أَمْرِهَا.

فَيَا كُلَّ مُحِبٍّ لِبَلَدِهِ: اشكرْ نعمةَ الله عليك بطاعتِه، ولَا تَزْهَدْ وَلَا تَسْتَنْقِصْ نَصَائِحَ عُلَمَائِكَ، اسْتَمِعْ لِتَوْجِيهَاتِ مَنْ شَابَتْ رُؤُوسُهُمْ، وَحَنَّكَتْهُمُ التَّجَارِبُ، وَصَقَلَتْهُمُ الْأَيَّامُ. والْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ اسْتِشْرَافِ الْفِتَنِ وَإِشْعَالِهَا.

يَا كُلَّ مُحِبٍّ لِبَلَدِهِ: اسْتَشْعِرِ النِّعْمَةَ الَّتِي تَرْفُلُ فِيهَا؛ فَأَرْضُكَ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا هِيَ مَهْوَى أَفْئِدَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَشَعَائِرُ الْإِسْلَامِ فِيهَا مُعْلَنَةٌ ظَاهِرَةٌ، فَلَا قُبُورَ فِيهَا وَلَا أَضْرِحَةَ، وَلَا دُورَ زِنًا مُقَنَّنَةٍ، لَا كَنَائِسَ هُنَا يُنْسَبُ فِيهَا الْوَلَدُ للهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، لَا خَنَازِيرَ تُؤْكَلُ، وَلَا خُمُورَ تُبَاعُ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا نَدَّعِي الْكَمَالَ، فَالْخَطَأُ مَوْجُودٌ، وَالتَّقْصِيرَاتُ وَالتَّجَاوُزَاتُ حَاصِلَةٌ وَنَسْأَلُ اللهَ الْكَمَالَ.

ويَا كُلَّ مُحِبٍّ لِبَلَدِهِ وَأَهْلِهِ: عَقْلَكَ عَقْلَكَ، نَرْبَأُ بِكَ أَخِي أَنْ تَكُونَ أَدَاةً تُحَرِّكُكَ أَيَادٍ تَقْبَعُ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ، أَيَادٍ لَا تَحْمِلُ رِسَالَةً عِلْمِيَّةً وَلَا دَعَوِيَّةً؛

وَإِنَّمَا رِسَالَةُ الْفَوَضَى وَالنِّكَايَةِ وَالتَّشَفِّي، نَرْبَأُ بِكَ أَخِي الْمُحِبَّ لِبَلَدِهِ أَنْ تَكُونَ شَرَارَةَ إِشْعَالِ الْفِتَنِ عَلَى مُجْتَمَعِكِ وَأَهْلِكَ وَبَيْتِكَ.

وَلْنُحَافِظْ عَلَى مُقَدَّرَاتِ بِلَادِنَا وَمُنْشَآتِهَا الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَلْنَحْرِصْ عَلَى حِفْظِهَا وَنَظَافَتِهَا كَمَا نُحَافِظُ عَلَى نَظَافَةِ وَسَلَامَةِ مَنَازِلِنَا، وَلْنَحْرِصْ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِنَا والتفاني فِي تَنْفِيذِهَا بَكُلِّ أَمَانَةٍ وَجَوْدَةٍ فَإِنْ لَمْ نُسْأَلْ عَنْهَا فِي الدُّنْيَا سَنُسْأَلُ عَنْهَا يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ.

ومِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي نَتَفيَّأ ظِلَالَهَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَة نِعْمَةَ اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَوِحْدَةِ الصَّفِّ تَحْت قِيادَة ولاة أمر يحكمون بشرع الله، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَابِغِ نَعْمَائِه وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى عَظِيمِ آلائِه.

قَالَ تَعَالَى: (وَاذكُروا نِعمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم إِذ كُنتُم أَعداءً فَأَلَّفَ بَينَ قُلوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعمَتِهِ إِخوانًا). وَاسْأَلُوا أَجْدَادَكُمْ عَنِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ الَّذِي كَانُوَا فِيهِ وَكَيْفَ أَصْبَحُوا الْيَوْمَ حَتَّى تَتَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ.

إِنَّ وطننا الْغَالِي الْكَبِير الْمَمْلَكَةَ العَرَبِيَّةَ السَّعُودِيَّةَ هِي مَعْقِلُ الْإِسْلَام، ومَأرِزُ الْأَيْمَانِ، وبلادُ الحرمين؛ فَجَدِيرٌ بِنَا، بل هو مِنْ أَهَمِّ الْوَاجِبَاتِ الْمَنُوطَةِ بِنَا تُجَاهَ بَلَدِنَا: الْمُحَافَظَةُ عَلَى تَدَيُّنِ الْمُجْتَمَعِ وَصَلَاحِهِ، وَنَشْرُ الْخَيْرِ بَيْنَ أَبْنَائِهِ، وَمُقَارَعَةُ الْفَسَادِ، وَتَجْفِيفُ مَنَابِعِهِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ، فَبَلَدُنَا قَامَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيُحْكَمُ فِيهِ بِالْإِسْلَامِ، وَأَنْظَارُ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَتَّجِهُ نَحْوَ دِينِ وَتَدَيُّنِ بِلَادِنَا وأَهْلِهَا، فَالْحِرْصُ عَلَى صَفَاءِ الْإِسْلَامِ وَنَقَائِهِ مَسْؤُولِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ؛ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ، عُلَمَاءَ وَمُعَلِّمِينَ، دُعَاةً وَمُرَبِّينَ.

إِنَّ اللهَ لم يُسَخِّر لِعِبَادِهِ النِّعَمَ إِلاَّ لِيَشكُرُوا، قَالَ سُبحَانَهُ: (وَاللهُ أَخرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمُونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ) [النحل: 78]، وَقَالَ تَعَالى: (كَذَلِكَ سَخَّرنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ) [الحج: 36].

إِذَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فَلنُحَافِظَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَ الْعَظِيمَةِ بِالسَّمْعِ والطَّاعَةِ ولُزُومِ الْجَمَاعَةِ والْحَذَرِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّه؛ فَإِنَّه كَمَا أَنَّ شُكْرَ النِّعَمِ يَزِيدُهَا، كَذَلِك الْكُفْر بِالنِّعَم يُزِيلُهَا، قَالَ تَعَالَى: (وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذابي لَشَديدٌ).

اللهُمَّ آمِنَّا فِي أَوْطَانِنَا، وَأَصْلِح أَئِمَّتَنَا وَوُلَاةَ أُمُورِنَا. اللهُمَّ وَفِّق إِمَامَنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ لِما فِيه عِزُّ الْإِسْلَامَ وَصَلَاحُ الْمُسْلِمِين. اللهُمَّ وَفِّقْهُ وَوَلِيَّ عَهْدِهِ وَإِخْوَانَه وَأَعْوَانَه لِما تُحِبُّهُ وتَرْضَاه. اللهُمَّ احفظْ جنودَنا المرَابِطين ورجالَ أمننا، وسَدِدْ رَمْيَهم يا ربَّ العَالمين. اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِك، وَتَحَوُّل عَافِيَتِك، وَفُجَاءَة نَقِمَتِك، وَجَمِيعِ سَخَطِك. هَذَا وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ إِنْ أَصَبْتُ فَمِنِ اللهِ وَإِنْ أَخَطَأْتُ فَمِنِّيّ وَمِنِ الشَّيْطَانِ.

الدكتور علي الصحفي
رئيس مجلس إدارة الجمعية التعاونية للدعوة والإرشاد بغران